مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 16 / العـدد 02 / سبتمبر2022 / ص ص 253 - 262

Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

إشكالية العلاقة بين اللغة، الثقافة والهوية –مقاربة نظرية حول المجتمع الجز ائري-

Problematic Of the Relationship Between Language, Culture, And Identity –A Theoretical Approach to Algerian Society

وسيلة عيسات
جامعة بشار (الجزائر) ، aissat.wassila@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/10/29 تاريخ القبول: 2022/09/10 تاريخ النشر: 2022/09/30

ملخص:
سنحاول البحث في الأهمية الكامنة بين اللغة، الثقافة والهوية. فاللغة تشكل سمة ثقافية وهوية اجتماعية. باعتبارها ظاهرة اجتماعية تساهم في وحدة وتماسك المجتمع وبالتالي فهي رمز للهوية الوطنية والخصوصية الثقافية. وعليه كان لابد لنا من استقراء الواقع اللغوي للمجتمع الجزائري أمام ما يشهده العالم من تحول تكنولوجي وعلمي، ومحاولة معرفة الدور الذي تلعبه اللغة في تكوين الخصوصية الثقافية والهوية الوطنية للمجتمع الجزائري، من خلال محاولة الوصول لتصورات الافراد للعلاقة الكامنة بين هاته المفاهيم وعلى اعتبار أن البحث في قضية اللغة هو البحث في قضية الثقافة والهوية للمجتمع الجزائري. فهناك ارتباط وثيق بين اللغة والثقافة أو بين لغة الفرد وكيانه الفردي والاجتماعي، واللغة هي هوية المجتمع وثقافته،
كلمات مفتاحية: الهوية، اللغة، الثقافية، الازدواج اللغوي، الخصوصية الثقافية.

ABSTRACT:
We will try to investigate the inherent importance between language, culture and identity. Language is a cultural trait and a social identity. As a social phenomenon that contributes to the unity and cohesion of society and thus is a symbol of national identity and cultural specificity. Thus, it was necessary for us to extrapolate the linguistic reality of the Algerian society in front of the technological and scientific transformation that the world is witnessing, and try to know the role that language plays in the formation of the cultural specificity and national identity of Algerian society.
Keywords: Identity, Language, Culture, Linguistic Duplication, Cultural Specificity.

1- مقدمة:

البحث في قضية اللغة هو البحث في ثقافة المجتمع وهويته معا. وينبغي أن نعي أن الثقافة في جوهرها هي طريقة حياة وممارسة لا تنحصر في القضايا المعنوية فقط. إنها مرآة الأمة، وعلى هذا الأساس يجب إعادة النظر بشأن اللغة وأهميتها والتعامل معها أساسا كوسيلة للثقافة لا غاية، وإعطاء الأهمية الأولى للمعنى لا للفظ. ويمكن اعتبار الثقافة كمجموعة من الأنظمة الرمزية أين تتمركز اللغة في المرتبة الأولى، أنها أساس المجتمع الإنساني بثقافته وقيمه وهويته. فاللغة لا تعني الأصوات والصرف والنحو أو علم الدلالة فحسب، إنها نتاج ثقافي. فالثقافة تضفي بمعاني خاصة على كل تركيب لغوي يستخدمه الفرد، أي لابد من معرفة الدلالات الثقافية للغة الخاصة بها ليصبح التواصل ممكنا. هنا نتساءل إذا كان فعلا هذا المزج أو الازدواج اللغوي في الجزائر خاصة والعالم العربي عامة أدى إلى ازدواج ثقافي وتفكك بنيوي للمجتمع.

- المؤلف المرسل: وسيلة عيسات

doi: 10.34118/ssj.v16i2.2468
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/2468
ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

فبالنسبة لكلود ليفي ستروس Claud Levi-Strauss الثقافة هي مجموعة من الأنظمة الرمزية أين تحتل اللغة المرتبة الأولى... والتي تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الواقع المادي والاجتماعي والعلاقات القائمة بين هذين النمطين، وتلك التي تقوم بين المنظومات الرمزية مع بعضها، والتي تتم من خلال فهم معاني اللغة المتداولة بين أفراد المجتمع، ودراستها في حد ذاتها عن طريق فهم تراكيبها وهذا ما حاول فارديناند دوسوسير Ferdinand de Saussur فعله من خلال الابتعاد عن فلسفة اللغة والتطور التاريخي للغة والاهتمام بدراسة لب وجوهر اللغة وواقعها الذاتي. أي من خلال البحث في معاني الرموز.

هناك ارتباط وثيق بين اللغة والثقافة أو بين لغة الفرد وكيانه الفردي والاجتماعي، واللغة هي هوية المجتمع وثقافته، والمجتمع الذي يتخلى عن لغته سيكون مصيره التلاشي والتفكك والذوبان. ونظرة الأفراد والمجتمع إلى لغتهم على أنها أصبحت لا تتماشى مع لغة العلم والتقنية يجعل المجتمع يعيش حالة من التخلف والتبعية. فكل المجتمعات المتطورة اعتمدت على لغتها في إبراز وتحقيق هويتها والمحافظة عليها، فالتخلي عن اللغة الأصل نوع من فقدان الهوية والذات وتأصيل التبعية. فالعلاقة بين اللغة والثقافة والهوية عميقة، ذلك لأن اللغة ليست مجرد وسيلة للتخاطب والتواصل، بل هي أداة لنقل الثقافة ووعاء لجميع ما تشمله هذه الثقافة من عادات وقيم وطرق تفكير... فاللغة لها علاقة متينة بالثقافة، والثقافة لها علاقة بالهوية الوطنية، ومن فقد لغته فقد ثقافته وهويته، ذلك أن الفرد يتأثر باللغة التي يتكلمها، يمتد هذا التأثير إلى تصوراته ونمط تفكيره وسلوكاته كما هو الحال في المجتمع الجزائري والعربي عامة. والفرد في هذه الحالة يعيش تناقضا بين المرجعية الثقافية التي تحقق له الانسجام والتوازن النفسي والفكري، وهذه الازدواجية والانقسامية في الثقافة أي بين ما يرغب فيه الفرد وما هو ملاحظ في الواقع الفعلي هذا من جهة، ومن جهة أخرى وبالرغم من اهتمام الأفراد بالثقافة الغربية وتبنيهم لبعض القيم العصرية، وهذا الخلط المستعمل في اللغة... فإنهم على دراية تامة بأهمية الثقافة واللغة في المحافظة على خصوصيتهم الثقافية وهويتهم وقيمهم. وتعلم أو التكلم بلغة أخرى لا يرتبط بمسألة الهوية ولا يقلل من شأن الانتماء إلى ثقافة معينة، بل يتخذ الأفراد من هذه اللغة جسرا يمكنهم من بلوغ الآخر والتواصل معه بلغته الأصلية. فلا يمكن نفي العلاقة بين اللغة والهوية التي هي من أبرز مركباتها.

فبعد ملاحظة الازدواج اللغوي الذي يعيشه الأفراد وهذا الاستعمال المفرط للغة المختلطة المركبة، نتوقع عدم المبالاة حول استبدال اللغة العربية بالنسبة للأفراد لكن النتيجة كانت العكس تماما. وهو ما يؤكد لنا وعي الأفراد بمكانة اللغة وأهميتها بالنسبة إليهم كمعلم من معالم الثقافة وكأساس للهوية الثقافية للمجتمع الجزائري، وفي نفس الوقت مدى المفارقة بين الواقع الملموس وتفكير الأفراد والذي إن دل على شيء إنما يدل على التعطش للثقافة التقليدية الجزائرية واعتبار اللغة أهم عنصر فيها والتي فقدت فعاليتها ووظيفتها في الواقع كما يعبر لنا عن البعد العاطفي للثقافة والهوية الوطنية وأهمية اللغة في تحقيق ذلك. فاللغة تعني وحدة الفكر والروح والقيم وهي أساسية في تكوين هوية الثقافة وترابط عناصرها وثراء بنيتها من الناحية الرمزية والدلالية. فما هو بالتالي واقع اللغة في المجتمع وتصورات الأفراد والتي تنعكس بالدرجة الأولى على سوكاتهم؟ خاصة في ظل ما يشهد العالم من تغير وتحول مستمر في شتى المجالات خاصة الثورة العظمى في تكنولوجيا الإعلام والاتصال... ماهي العلاقة الموجودة بين اللغة، الثقافة، والهوية...؟ هل تعلم لغات أخرى معناه التخلي عن الهوية والخصوصية الثقافية للمجتمع؟

2- موجز لمفهوم الهوية

ارتبط مفهوم الهوية بالذات البشرية وبالانتماء سواء في صيغتها الفردية أو الجماعية فاحتلت مجالا واسعا من البحوث السوسيولوجية والفلسفية. فارتبط لفظ الهوية لغة بالضمير "هو" وهي تعني في الأصل اللاتيني Idem والذي انتج صفة Identicus بمعنى التشابه والمماثلة والتطابق، وتعارض ما يختلف عنها ويتغير بالرغم من أنها هي ذاتها متغيرة وهو ما سنراه في الأجزاء القادمة. فمفهوم الهوية يستعمل مطابقة لمفهوم Identité في اللغة الفرنسية و Identity في اللغة الانجليزية وكلاهما مستمد من الأصل

اللاتيني Identitas أو Identatis والتي تعني كل منهما "نفسه أو عينه" وهذا يؤكد على درجة الاشتراك في التشابه التام أو التفرد عن الآخرين في نطاق خاص أو غرض محدد، وفي اللغة الفرنسية يستعمل Identité للدلالة على مجموع الصفات والمميزات التي تجعل شخصا ما شخصا معينا، ووفق معجم لالاند الفرنسي فإن الهوية تدل على الميزة الثابتة في الذات. (عبد اللاوي ناصر، 2012، ص45). وبالتالي فالهوية تشير إلى كل الخصائص والمميزات التي تتميز وتنفرد بها الشخصية الفردية أو الجماعية. وتعرف الهوية Identité كمفهوم فلسفي تجريدي على أنها الجوهر الثابت "أو حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات" (المعجم الفلسفي، 1983، ص208)

أما اصطلاحا تعتبر الهوية كنتيجة لوعي الذات، تعبير عن الأنا أو نحن بامتلاك خصوصية تميزنا عن الآخر، إنها مجموعة متكاملة من العناصر والمعطيات المتكاملة كالدين، اللغة، التاريخ... مختلف العناصر التي تشكل في تكاملها ثقافة المجتمع والتي تجعل الفرد بخصوصيته الثقافية والقيمية يتمايز عن غيره ويشعر بالتالي بوحدته الذاتية. ولقد ارتبط مفهوم الهوية بالثقافة وأداتها هي اللغة. والهوية تتحول إلى هوية ثقافية عندما تستخدم لأغراض التمييز بين "نحن" و"هم" على أساس ثقافي. "إنها مجموع الظواهر التي بواسطتها يستطيع الفاعلون الاجتماعيون معرفة وتحديد مفهومهم عن ذواتهم" (Geneviève Vinsonneau, 2003, p179). إنها إحساس الفرد بفردانيته ووجوده المختلف عن غيره، وهذا الاختلاف هو الذي يعرفه على نفسه في تحركه ضمن ثقافته الكلية والفرعية، ويشعر إذا كان سويا بمدى اقترابه أو ابتعاده عن منظومة القيم المعيارية المعتمدة في مجتمعه.

وفي ارتباطها بالثقافة فإن "الهوية تتغذى من مصدرين هما الماضي الذي يشكل رواسب الانسان وروافده، باعتبار أن الانسان كما يقول هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel ثلاثي الأبعاد: ماضي وحاضر ومستقبل. والمصدر الثاني هو المجتمع أو البيئة الاجتماعية كما يقول ابن خلدون Ibn Khaldoun: الإنسان ابن بيئته" (دواق الحاج، 2010، ص91).. فالهوية إذا هي شبه واختلاف. يجعل الفرد يتحرك في ثقافته، كما أن ثقافته تتحرك فيه. إنها المكان الممثل للأنا في نظر الآخر وللشخص نفسه" (Benchehida Ahmed, 1995, P162) ، تدعوه تارة ليشبه غيره وهو ما تقوم به التنشئة الاجتماعية في الأسرة، وتدعوه تارة أخرى إلى إبراز فردانيته وعدم الذوبان في ثقافة مجتمعه من جهة ليؤكد وجوده كفرد في المجتمع، ومن جهة أخرى التمسك بثقافة مجتمعه ليميزها عن غيرها من الثقافات. فالهوية هي امتلاك مرجعية ثقافية بالإضافة إلى قدرة الفرد على الاندماج وتحقيق التجانس الداخلي، إنها جزء من الذات تتفاعل فيها مجموعة من العناصر أساسها اللغة والدين والقيم. "و تبرز الهوية الثقافية باعتبارها صيغة تحديد فئوي للتمييز بين نحن/هم، وهو تمييز قائم على الاختلاف الثقافي" (Denys Cuche, 1998,P50) . فتفاعلنا مع الآخر يشكل جانبا مهما في منظومة القيم التي نحملها وفي أنماط السلوك الصادرة عنا. "غير أن مسار التنشئة الاجتماعية إنما يبدأ من التفرد والإحساس بالحرية، أين ينمو الإحساس بالهوية والقدرة على الاستقلال في الفكر والفعل" (أنتوني غدنز، 2001، ص90). ويميز علم الاجتماع بين نوعين، الهوية الجماعية، والهوية الذاتية (Carmel Camilleri- Geneviève Vinsonneau, 2002, P22) وهما مترابطان، إذ يمكن التمييز بين خصائص فرد عن غيره، إلا أن تلك الخصائص تحدد موضعه ضمن مجموعة من الأشخاص يقاسمونه نفس المميزات.

فالهوية الجماعية تجمع بين الأفراد المتشابهين، أما الهوية الذاتية فهي تميز الفرد عن غيره، وهذا ما تقوم به البيئة الثقافية في تشكيل الهوية الفردية. "فالثقافة هي التي تشكل الهوية الجماعية، إنها "نحن". ولا يمكن أن تكون هناك ثقافة بدون هوية جماعية والعكس، أو على الأقل بدون البحث عن هوية جماعية" (Mustapha Cherif, Jean Sur, Jacques Berque, 2004, P128-129). فإذا كانت الثقافة هي مجموع القيم والمعتقدات وأنماط السلوك... التي يتميز بها مجتمع عن غيره، فإن الهوية هي جعل هذه القيم والمعايير قائمة بذاتها، آنية، أي جعل هذه الثقافة موجودة في الزمان والمكان من خلال تجسيدها في الواقع كتصورات وأنماط

سلوك ضمن كل ما يشهده العالم من تحولات. "فهوية الأنا تمثل علاقة حوارية –جدلية- (...) تتواصل الأنا مع ذاتها كما تتواصل مع الآخرين، والوعي الذاتي يتأسس في نقطة تقاطع المستوى الأفقي للتفاهم المشترك مع الآخرين، وفي نقطة تقاطع المستوى العمودي للتفاهم الذاتي مع ذاتها نفسها" (يورغن هابرماس، 2001، ص 189) على حد تعبير الفيلسوف الالماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas (1929)، أي في العلاقة مع الأخر ثم الرجوع إلى الذات في علاقة ديالكتيكية للانا والآخر لكن دون أن يتم نسيان هوية الأنا. ويؤكد كلود ليفي ستروس Cl. Lévi-Strauss "أن الثقافات الإنسانية تنشأ الواحدة بالنسبة للأخرى في علاقة مع الغيرية على أساس الهوية" (Mondher Kilani, 1989, 277) . هي ليست مرادفا للعزلة والتقوقع، ولكنها تعني التعامل والتفاعل مع الحضارات الأخرى من منطلق القدرة على العطاء، التنوع... وهي ضد التماثل الثقافي، ضد الذوبان، ضد المسخ. ومبدأ الثبات هنا لا نعني به الثبات والسكون وعدم التغير، ولكن الثبات من حيث الخصوصية التي تميز المجتمع عن غيره. فالهوية تعبر على كل العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع من قيم، لغة، دين وتقاليد... وهي تسمح بتأقلم أفراد المجتمع مع المحيط، بينما ترد وترفض كل القيم المتعارضة مع مصلحة المجتمع. فهي خزان للحقائق الثابتة تؤلف إرثا كبيرا من عناصر تنوير الذات أساسها المحافظة على الثقافة الوطنية بالدرجة الأولى، كما تقوم التغيير والانفتاح على الآخر مع المحافظة على الثقافة الوطنية بمعنى ضرورة التغيير لكن مع أخد الحذر من قيم الثقافة الغربية أي أخذ القيم الايجابية فقط والتي لا تؤثر على الخصوصية والهوية الوطنية للمجتمع الجزائري على اعتبار أن الهوية هي الدعامة الأساسية للأمن والاستقرار.

ولقد أكدت العديد من الدراسات وجود علاقة بين تصور الهوية عند الشباب والمستوى الدراسي، بحيث أنه كلما زاد المستوى الثقافي والعلمي للشباب، ازداد وعيهم بضرورة الانفتاح على الآخر والتغيير لكن مع المحافظة على الهوية الوطنية وذلك من خلال وعيهم بأهمية الهوية للتميز عن الآخر وفي نفس الوقت كأساس ودعامة للمجتمع ومنظومته الثقافية والقيمية. والمجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات له ثقافته الخاصة، وهذه الثقافة لها هويتها الخاصة التي تنطلق منها وتخضع لها في مختلف نتائجها، وتتمثل هذه الهوية فيما يمكن أن نسميه بنظام أو نسق القيم الأساسية للثقافة الذي ينبثق من النظام السائد والذي قد يكون عبارة عن لغة ودين وقيم... فالعلاقة بين الثقافة والهوية قائمة على أساس العلاقة بين الذات وعملية إنتاج الثقافة أو إعادة إنتاجها، أي بروز الذات الفاعلة والمفكرة. بمعنى أن الهوية تنشأ داخل الإطار الثقافي والاجتماعي الذي يحدد موقع الفاعلين وتصوراتهم ويوجه سلوكاتهم.. وفي هذا الصدد وبملاحظة وضعية الثقافة في الجزائر المتغيرة، وواقع اللغة بالدرجة الأولى، كيف يمكن لنا تحديد العلاقة بين اللغة والثقافة والهوية؟

3- مظاهر الهوية وتمثلاتها لدى الشباب الجزائري

مكونات الهوية الثقافية للمجتمع متعددة ومن أهمها اللغة، الدين، التقاليد والاعراف والتاريخ... وكل مكونات الثقافة التي يتميز بها المجتمع عن غيره. قمنا بالاقتصار في هذه الدراسة على مكون واحد فقط هو اللغة لفهم مكانة اللغة وأهميتها في تحديد الهوية الوطنية والخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري في تصور الشباب. باعتبار اللغة عامل ثقافي بالدرجة الأولى أي من أهم مكونات ثقافة المجتمع الجزائري.

الهوية هي الشعور بالانتماء الاجتماعي والثقافي للمجتمع وحماية خصوصيته الثقافية. يقول المفكر عابد الجابري "أن الجواب الصحيح عن السؤال ما العمل؟ سواء إزاء الثنائية والانشطار الذين تعانيهما الثقافة العربية، أو إزاء الاختراق الثقافي وإيديولوجية العولمة، يجب أن تنطلق وقبل كل شيء من العمل داخل الثقافة العربية نفسها، ذلك لأنه سواء تعلق الأمر بالمجال الثقافي أو بغيره، فمن المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطرا

على الكيان والهوية" (محمد عابد الجابري، 1998، ص21). وهذا بعد ما يؤكد أن هدف العولمة هو إلغاء الخصوصية الثقافية للمجتمعات.

فكل من يلاحظ واقع المنظومة الثقافية والقيمية في المجتمع الجزائري ومحاولة المزج بين الثقافة التقليدية وقيم الحداثة خاصة بالنسبة للشباب للوصول إلى خلق مجتمع جديد مختلف، يؤكد أن هناك أزمة ثقافية، هذه الأزمة تتضمن في صلبها أزمة هوية من خلال التحولات العميقة التي تطرأ على الذات الجمعية، أي أن الجزائريين – الشباب خاصة- سيكونون حتما منقسمين على أساس المزيج القيمي الذي يشهده المجتمع بين قيم الثقافة التقليدية والغربية الحداثية، وبالتالي لن يكون هناك حس بالهوية الوطنية، أو بالأحرى أن الهوية الجزائرية تحمل في طياتها مكونات مختلفة ستؤدي حتما إلى خلق نوع من الصراع والذي قد يوصل إلى أزمة هوية. لكن الواقع يؤكد العكس تماما. فبالرغم من رغبة الشباب الوصول إلى الحداثة وتبني قيم جديدة حديثة، إلا أن هناك رغبة في نفس الوقت في المحافظة على قيمهم التقليدية التي تشكل في الأساس مصدر هويتهم. وهنا نتفق مع وليام كوانت William B Quandt الذي يؤكد أن "و بصفة عامة، الجزائريين لهم حس قوي بهويتهم، وهذا إلى حد كبير بسبب طبيعة نضالهم من أجل الاستقلال" ويضيف في محل آخر "رغم ما صرح به كثير من الملاحظين، فالجزائريون لا يظهر أنهم منقسمين بشكل ضيق حول المسائل الثقافية. بل يشتركون كلهم في هوية جزائرية، ولا توجد حركة انفصالية..." (Quandt.W, 1998, P216). فانطلاقا من الرغبة في خلق مجتمع جديد، وتبني قيم جديد مواكبة للعصر مما أدى إلى حدوث نوع من الازدواج، أو بالأحرى التمازج اللغوي والقيمي، والملاحظ في المجتمع الجزائري، هل سيقود ذلك بالضرورة إلى أزمة هوية...؟ كيف يمكن للشباب تجنب الصراع وفي نفس الوقت مواكبة الحداثة والمحافظة على أهم أسس هويتهم والمتمثلة في اللغة من خلال تطويرها لا إلغائها؟

4- اللغة كأساس للهوية والثقافة

إن ما شد انتباهنا في المجتمع الجزائري هو ظاهرة المزج اللغوي التي تتخذ من مزج اللهجة الجزائرية بالعبارات والكلمات الفرنسية أداة تخاطب وتواصل بين الجزائريين، وهي حالة لا تعبر فقط على ميراث استعماري بل أكثر من ذلك إنها الرغبة في التوازي مع متطلبات التكنولوجيا والعصرنة والحداثة، وهو ما يدفع إلى ضرورة تقنين وتنظيم هذه الظاهرة (التعدد والازدواج اللغوي) بطريقة تخدم مصلحة المجتمع ككل. فاللغة أكثر من كونها مجرد علامات فهي كود code عام للاتصال. وهي ظاهرة اجتماعية وموضوع مسائلات فلسفية ومنطقية، تعمل على حفظ الموروث الثقافي للأمة ونقله من جيل لآخر، وتحصيل التراث والمعارف الأخرى التي يحتاجها الإنسان. إنها في تعريفها البسيط وسيلة اتصال بين شخصين الهدف منها التفاهم، ولكي يحدث هذا التفاهم لابد من الاشتراك في معرفة رموز هذه الوسيلة وما تحتويه من معاني اجتماعية وثقافية متفق عليها سابقا ومحاولة فهمها. "فقد بينت الدراسات اللغوية مرات عديدة الأطروحات القائلة بأن منظومة لغوية ما .... الشيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها بل أيضا تراكيبها تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم. إننا نفكر كما نتكلم الشيء الذي يعني قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير" (محمد عابد الجابري، 1991، ص77). فالفرد يتأثر باللغة التي يتكلمها ويمتد هذا التأثير إلى تصوراته ونمط تفكيره وسلوكاته، لأنها تشكل جزءا مهما من ثقافته.

إذ يرى "المختصون في انثروبولوجيا الاتصال إننا نفهم من "اللغة" كل المظاهر الملاحظة في التعبير عن الفكر والعلاقات بين الأفراد في ضمن نسق حضاري محدد. وعلى العكس من ذلك في المقاربات اللسانية اللغة تعطي كل استخدامات الرموز الشفهية، الحركية (الإشارات)... وغيرها، لكن كذلك الطقوس، الاتجاهات، أنماط السلوك" (Jean Lohisse, 1998, P 9). أي أن هناك علاقة وطيدة بين اللغة والثقافة ذلك لأنها ليست مجرد وسيلة للتخاطب والتواصل بل اكثر، واهم من ذلك هي أداة لنقل الثقافة ووعاء لجميع ما تشمله هذه الثقافة من عادات، أعراف، تقاليد، طرق تفكير، قيم، عقائد، أنماط سلوك وتصورات ومناهج حياة...

فالاندماج في ثقافة والامتثال لها هي قبل كل شيء معرفة لغتها والامتثال والاندماج فيها (Jean-Pierre Warnier, 1999, P 8) . فاللغة بهذا هي وعاء الثقافة والأداة الأساسية في عملية التنشئة الاجتماعية والتطبيع التي يتم من خلالها بناء الفرد بما يتلاءم مع انتماءه وهويته وثقافة مجتمعه. وهي أهم مظاهر الثقافة باعتبارها خاصية إنسانية تنجم عن ظواهر الفكر وتصوراته، كما يؤكد برونسيلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowski (1884-1942) " (درية السيد حافظ، دس، ص190) الذي اهتم بدراسة اللغة وينظر إليها على أنها مفتاح المجتمع ومدخل الثقافة وأسلوب من أساليب الفعل. أي أن كل صيغة للتبادل والتفاعل والتفاهم بين الافراد إنما هي متوسطة من خلال استخدام ملزم مشاركة لرموز تحيل في المستوى الأخير إلى اللغة المتداولة. فاللغة تمثل أرضية المشاركة بين الذوات (...) إنها الوسط الذي تشارك فيه الذوات، ليس فقط في المعنى الادراكي وإنما في المعنى الشامل لرؤيا انفعالية (...) يضمن لنا الفهم المتبادل، المشاركة التي تقوم بين الأفراد (يورغن هابرماس، 2001، ص188) وعندما نقول بين الذوات فإننا نتحدث بالضرورة على البين ثقافي.

5- الازدواج اللغوي في الجزائر

فانطلاقا من هذه القاعدة خلق الاستعمار في المجتمع الجزائري تمزقا في الفكر والثقافة واللغة والحياة الاجتماعية، وهو ما ظل قائما الى وقتنا هذا من خلال الامتزاج أو الازدواج اللغوي. فلقد عمدت فرنسا على نشر اللغة والأفكار الفرنسية. إذ يقول مالك بن نبي Malek Bennabi (1905-1973) في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" "لقد أحدث الاستعمار العديد من الظواهر. ومن بينها ظاهرة خاصة نتيجة للظواهر السابقة وهي ظاهرة الازدواج اللغوي التي ترك أثرها ومفعولها المباشر على الظواهر الثقافية في البلاد. أول هذه البلدان مصر(...)، والبلد الثاني الذي يعيش ازدواجية لا مثيل لها في العالم هو الجزائر"(مالك بن نبي، 1988، ص57) ، وهو واضح جدا بمجرد ملاحظة الواقع في المجتمع الجزائري خاصة بالنسبة للشباب، حيث إنها لم تتوقف عند حد المجال الفكري الجامعي وإنما امتدت إلى كل المجالات الحيوية الأخرى والحياة اليومية للمجتمع. و هو ما عبر عنه الاستاذ ناصر جابي Nacer Djabi بالانقسامية اللغوية، التي تبدو عميقة ومتأصلة في المجتمع الجزائري إلى درجة وجود مجتمعين متوازيين، هذه الانقسامية اللغوية التي تضاءلت وتراجعت نسبتها نوعا ما حسب تعبير ناصر جابي مع الفئات الصغيرة السن أي فئة الشباب بمقابل الفئة الأكبر سنا.

فاستعمال اللغة الفرنسية مثلا ليس لأنها معيار للحداثة أو التقدم بالدرجة الأولى بل هو نتيجة التأثر بالمرحلة الاستعمارية. وبالتالي فالازدواج هنا هو أخطر بكثير لأنه تحول إلى ازدواج شعبي على مستوى القاعدة العريضة للمجتمع. وبعد خروجها من مرحلة الاستعمار عانت الجزائر طويلا من مسألة اللغة وعلاقة اللغة بالهوية. ولا تزال مشاكل اللغة في الجزائر قائمة وهذا ما تؤكده ملاحظاتنا اليومية للواقع. لكن السؤال المطروح في هذه الحالة هو تصور الشباب للغة في خضم هذا المعترك من التحولات التي يشهدها المجتمع الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى المزج الذي أصاب اللغة والذي يؤكد على الخلط بين العربية والفرنسية بطريقة لا تعود معها اللغة لا عربية ولا فرنسية بل تصبح لغة مركبة وهجينة.

فاللغة المستعملة هي اللهجة، لكن داخل هذه اللهجة نجد أن هناك مزيج بين اللغة العربية والفرنسية أو مجرد مصطلحات فرنسية، إذ نلاحظ نسبة بسيطة جدا ممن يتكلمون اللغة العربية الفصحى، ونسبة أخرى قليلة يتحدثون باللغة الفرنسية لكن حتى هذه النسبة الأخيرة تكون في بعض الأحيان عبارة عن خلط بين العربية والفرنسية. فهل هذه ميزة إيجابية أم سلبية باعتبارها مؤشر أولي وأساسي للمثاقفة. إذ يقول مارك ريشل Mark Richelle 1930 "مفهوم السلوك الأكثر تعبيرا من وجهة إكلينيكية تبقى اللغة. يمكن أن نقول أن إصابة الخطاب في مجتمعاتنا يترجم جيدا حالتهم المرضية" (Chadly Fitoury, 1969, P52) وهو ما يعبر عن نوع المثاقفة والاحتكاك خاصة باستعمال التقنيات الحديثة القائمة على اللغات الأجنبية بالدرجة الأولى.

فكل مرة تظهر اللغة بشكل جديد معبرة عن أزمة. كما يقول غرامشي Antonio Gramsci (1881-1937) " كل مرة تظهر بشكل أو بآخر إشكالية اللغة، هذا يعني أن هناك مجموعة من المشاكل في طور التكوين والطبقة الموجهة الضرورية لوضع روابط أكثر متانة، وأكثر جدية بين الجماعات الموجهة والطبقة الشعبية الوطنية أو بمعنى آخر عندما يكون إعادة تنظيم الهيمنة الثقافية" (Mustapha Madi, 1997, P11) . وهو ما يؤكده شكل اللغة السائد في المجتمع الجزائري، والذي يعبر ربما عن بداية حدوث نوع من التفكك في الفكر والثقافة. فاللغة بمثابة الأساس الذي تقوم عليه ثقافة المجتمع. فوحدة اللغة تعني وحدة الروح والفكر، وهي أساسية في تكوين هوية الثقافة وترابطها، بحيث يتيح مجالا واسعا للتفاهم والحوار وتثري بنية الثقافة من الناحية الرمزية والدلالية.

لكن رغم هذا الازدواج اللغوي الذي يعيشه الأفراد وهذا الاستعمال المفرط للغة المختلطة المركبة، هناك وعي للأفراد بمكانة اللغة وأهميتها بالنسبة إليهم كمعلم من معالم الثقافة، وكأساس للهوية الثقافية للمجتمع الجزائري، وفي نفس الوقت مدى المفارقة بين الواقع الملموس وتفكير الأفراد، والذي إن دل على شيء إنما يدل على التعطش للثقافة التقليدية الجزائرية، واعتبار اللغة أهم عنصر فيها. كما يعبر لنا عن البعد العاطفي للثقافة والهوية الوطنية وأهمية اللغة في تحقيق ذلك. فالشباب الجزائري أثبت لحد الآن وعيه وتمسكه بالقيم التقليدية للمجتمع الجزائري بما في ذلك اللغة.

لكن ينبغي أن نعي أن الثقافة في جوهرها هي طريقة حياة وممارسة لا تنحصر في القضايا المعنوية فقط... إنها مرآة الأمة، وعلى هذا الأساس يجب إعادة النظر بشان اللغة وأهميتها والتعامل معها أساسا كوسيلة للثقافة لا غاية، وإعطاء الأهمية الأولى للمعنى لا للفظ. و"يمكن اعتبار الثقافة كمجموعة من الأنظمة الرمزية أين تتمركز اللغة في المرتبة الأولى (...). فبواسطة اللغة يمكن للفرد صياغة أفكاره، التعبير وإظهار انفعالاته، يؤثر ويتأثر بغيره من أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه، أنها أساس المجتمع الإنساني بثقافته وقيمه وهويته." (Jean Caune, 1995, P15)

للغة أهمية في الحياة الاجتماعية من خلال أنها العامل الأساسي للتفاعل الإنساني في الحياة اليومية للفرد وهي وسيلة النقل الوحيدة للثقافة بين الأجيال. فهي تعني وحدة الفكر والروح والقيم، وهي أساسية في تكوين هوية الثقافة وترابط عناصرها وثراء بنيتها من الناحية الرمزية والدلالية، إذ يقول الفيلسوف الألماني يوهان جوتفريد هاردر Johann Gottfried Hrder (1744-1803) "أن اللغة القومية هي بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحتفظ فيه، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب، فهي تمثل في كل الأحوال روح الشعب" (تركي رابح، 1981، ص30). فهي أساس العملية التفاعلية والتواصلية التي تتم بين الأفراد من خلال التفاعل الرمزي لمعاني هذه اللغة. فالملاحظ أن اللغة لا تشكل عائقا في التواصل بين الشباب خاصة، وهو ما يؤكد وعي الأفراد بأهمية ومكانة اللغة العربية والدور الذي تلعبه في تحقيق الهوية، من خلال فهم المعاني الدلالية لرموز هذه اللغة، وبالتالي خلق الحوار.

فبالرغم من اهتمام الأفراد بالثقافة الغربية الحداثية وقيمها وتبنيهم لبعض القيم العصرية، وهذا الخلط المستعمل في اللغة... فإنهم على دراية تامة بأهمية الثقافة واللغة في المحافظة على خصوصيتهم الثقافية وهويتهم وقيمهم. فالتعلم أو التكلم بلغة أخرى لا يرتبط بمسألة الهوية ولا يقلل من شأن الانتماء إلى ثقافة معينة، بل يتخذ الأفراد من هذه اللغة جسرا يمكنهم من بلوغ الآخر والتواصل معه بلغته الأصلية. فلا يمكن نفي العلاقة بين اللغة والهوية التي هي من أبرز مركباتها، فاللغة تأتي كأحد أهم العناصر في تكوين وتحديد الهوية في المجتمع الجزائري. فهي ليست مجرد أداة للتواصل كما يعتبرها الكثيرون بل هي لب وجوهر الفرد وثقافته. "فاللغة ليست شكلا أو أداة فحسب، بل هي محتوى أيضا، إنها قالب تصاغ به الأفكار... وعامل محوري في تشكيل الهوية. واللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار كأي نشاط إنساني آخر، فهي ليست جامدة بل تتغير لأنها تستعمل من قبل أجيال تواجه عالما آخر ومفاهيم أخرى وتطور اللغة هو الذي جعل الاتصال الإنساني متطورا باختلاف أساليبه. وهذا ربما ما يفسر

استعمال اللغة الفرنسية لدى الشباب. فهذا لا يعبر على فقدان للهوية وانما ربما يكون إثراءً للهوية والثقافة في المجتمع الجزائري إذا ما نظرنا إلى ذلك من الجانب الايجابي.

لقد اعتبر عالم الألسنة السويسري دو سوسير Ferdinand de Saussure اللغة مؤسسة اجتماعية وهي نسق منظم من العلامات للتعبير عن الأفكار(Armand et Michèle Mattelart, 2004, P46) . فاللغة تنظيم من الإشارات يعمل على تأمين الاتصال، والتفاعل بين الأفراد وهي ليست من صنع فرد أو مجموعة من الأفراد وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع. وهي كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو، يعني حتى اللغة تتغير وتتطور، وتكتسب قيمتها الاجتماعية من كونها مادة للتفكير والتعبير والاتصال بشكل أدق لا أداة. إذ ينظر إليها علماء الاجتماع على أنها نظام من الرموز يتعامل ويتعاون من خلاله أفراد المجتمع وبالتالي فهي وسيلة للترابط الاجتماعي وعنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع. فهناك علاقة بين اللغة والفعل؟ انطلاقا من إمكانية تعريف الواقعية اللسانية على أنها دراسة اللغة في وضعية التفاعل اللفظي الملموس (Jean Lihisse, 2007, 108-109) ، باعتبارها (اللغة) أقدم الظواهر الاجتماعية والإنسانية، وهي تعطي لعملية الاتصال بين الأفراد بعدا آخر وتثريه من خلال توصيل الأفكار والانفعالات... عن طريق نظام من الرموز المكونة لثقافة المجتمع.

فشارلز كولي Charles Holton Cooley (1864-1929) توصل إلى أن نمو الذات وتكونها هو حصيلة التفاعل الاجتماعي مع الآخرين، فاكتساب قيم وثقافة المجتمع لا يحدث بدون وسيلة اتصال. فالذات نتاج اجتماعي تتشكل وتنمو بالتفاعل مع الآخرين. ومن أشهر من تناول هذا الموضوع جورج هربرت ميد George Herbert Mead (1863-1931) فكان ينظر إلى المجتمع كساحة للتفاعل يتبادل الناس فيها الاتجاهات والخبرات والمعرفة ومختلف المعاني. ومفهوم الذات هو الذي يساعد على دراسة علاقة الفرد بالمجتمع وثقافته." (ابراهيم عثمان، 2004، ص193-194) وبالرغم من أن ضرورة وجود التفاعل الاجتماعي تسبق وجود اللغة إلا أن النمو الاجتماعي والذاتي للفرد لم يقم إلا بقيام اللغة كوسيلة تفاعل

6- خاتمة

من هنا يمكن القول أن ما يهم في عملية الاتصال بين أفراد المجتمع الجزائري ليس اللغة في حد ذاتها وإنما المعاني المستخلصة من كلمات هذه اللغة والمتداولة فعلا بين أفراد المجتمع. وهذا ما وضحه "دو سوسير Ferdinand De Saussure 1906-1911-كما ذكر كل من أرمان و ميشال ماتلار Armand et Michèle Mattelart في كتابهما تاريخ نظريات الاتصال - حين اعتبر (دوسوسير) اللغة مؤسسة اجتماعية واعتبر الكلام فعلا فرديا. فاللغة لكونها مؤسسة اجتماعية هي نسق منظم من العلامات للتعبير عن الأفكار إذ تمثل البعد الترميزي للكلام" (Armand et Michèle Mattelart, 2004, P46) , هذا من جهة ومن جهة يرى "رولان بارث Roland Barthes (1915-1980) أن اللغة تمثل نسقا منظما من العلامات كل علامة تحيل عن بعدين. الأول ظاهر و واضح- الدال. والثاني متضمن في السابق فهو حامله, المدلول, وبين هذين العنصرين تمر الدلالة (المعنى)" (Armand et Michèle Mattelart, 2004, P47)وهو ما يحدث في الواقع اللغوي في الجزائر.

فالارتباط وثيق بين اللغة والثقافة أو بين لغة الفرد وكيانه الفردي والاجتماعي، واللغة هي هوية المجتمع و ثقافته، والمجتمع الذي يتخلى عن لغته سيكون مصيره التلاشي والتفكك والذوبان. لكن في نفس الوقت لا يعني ذلك الانغلاق. ونظرة الأفراد والمجتمع إلى لغتهم على أنها أصبحت لا تتماشى مع لغة العلم والتقنية يجعل المجتمع يعيش حالة من التخلف والتبعية. فكل المجتمعات المتطورة اعتمدت على لغتها في إبراز وتحقيق هويتها والمحافظة عليها. فالتخلي عن اللغة الأصل نوع من فقدان الهوية والذات وتأصيل التبعية وهو ما يحدث في المجتمع الجزائري بالرغم مما أثبته الأفراد من وعي لمكانة وأهمية اللغة... وهو ما يرفضه الشباب ويحاولون تجنبه في عملية التغير. فالعلاقة بين اللغة والثقافة والهوية عميقة، ذلك لأن اللغة ليست مجرد وسيلة للتخاطب

والتواصل، بل هي أداة لنقل الثقافة ووعاء لجميع ما تشمله هذه الثقافة من عادات وقيم وطرق تفكير... ومن ثمة كمحور أساسي للهوية. فاللغة لها علاقة متينة بالثقافة، والثقافة لها علاقة بالهوية الوطنية، ومن فقد لغته فقد ثقافته وهويته، ذلك أن الفرد يتأثر باللغة التي يتكلمها، يمتد هذا التأثير إلى تصوراته ونمط تفكيره وسلوكاته كما هو الحال في المجتمع الجزائري.

فالهوية كما يدعي الكثيرون ليست ثابتة أو ساكنة ولا تدعو إلى التعصب والانغلاق ورفض الآخر وثقافته. فهي بهذا المعنى تدفع بالمجتمع إلى الركوض والغوص في الماضي والانغلاق عليه من خلال تمجيده ورفض أي تغيير. على العكس من ذلك فالهوية متغيرة ومنفتحة وتدعو إلى مواكبة التغيير. إنها هوية الحداثة والإنتاج الرمزي، فهي سيرورة ذات أبعاد متغيرة، منفتحة وقابلة للتجدد والابتكار، والتواصل الفعال مع الآخر المختلف، وليست كمعطى أو كقيمة ثابتة غير قابلة للمساس والتحول. لكن لابد من التأكيد أن هذا لا يعني أبدا التخلي والانسلاخ عن المنظومة القيمية للمجتمع والذات والخصوصية الثقافية، خاصة عندما نتحدث عن اللغة كأهم عامل في تشكيل هذه الهوية في المجتمع الجزائري والتي تبحث من خلالها الهوية على إثبات ذاتها وسط مختلف الهويات ومن خلال مختلف التأثيرات والتحديات الخارجية.

فالشباب -ومن خلال ملاحظة الواقع- أكد أنه على وعي تام بأهمية المكونات الأساسية للهوية وعلى رأسها اللغة. مثبتا بداية مرحلة جديدة من خلال تبنيه لخطاب معتدل قائم على الدمج والتكامل الغير مضر بالخصوصية الثقافية ومقومات الهوية الوطنية، ومتجنبا بذلك لحدوث الصراع والاغتراب أو ما نسميه بأزمة الهوية. هذا الخطاب القائم بالدرجة الأولى على حقائق موضوعية متعلقة بواقع وثقافة المجتمع الجزائري وقيمه التقليدية الأصلية من جهة، ومن جهة أخرى قائم على طموحات الشباب وتصوراتهم لعملية التغيير والوصول إلى مواكبة العصر والحداثة بكل ما تطرحه هذه المرحلة التحولية من تأثيرات وتحديات. كل ذلك من خلال علاقات الشباب مع ذواتهم ومع الآخرين محاولين إثبات هويتهم كإطار مرجعي يستند إليه لتحقيق الذات، وذلك عن طريق تطوير مجموعة من الاستراتيجيات الجديدة في التعامل مع الهوية، أي هوية جديدة تتماشى وتتوازى مع التغيرات الحاصلة والواقع الجديد الذي أفرزته هذه التغيرات على اعتبار الهوية متغيرة وغير ثابتة آخذين بعين الاعتبار أهم مكونين وهما اللغة والدين، الأمر الذي دفعهم إلى عدم القبول بهوية جاهزة، وإنما بناء هوية جديدة قائمة على الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري ومحاولة تطوير المنظومة اللغوية لتتماشى ومتطلبات العصر، بمعنى جعل التقنية في خدمة اللغة والثقافة وليس تحويل الثقافة إلى تقنية.

- قائمة المراجع

إبراهيم عثمان (2004)، مقدمة في علم الاجتماع, دار الشروق للنشر والتوزيع, ط 1.

المعجم الفلسفي(1983)، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، الهيئة لشؤون المطابع الاميرية.

أنتوني غدنز(2001)، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1.

تركي رابح(1981)، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، ط 2.

دواق الحاج(2010)، سؤال الهوية والانية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، اعمال الملتقى الوطني الاول، جامعة الحاج لخضر، قسم الفلسفة، باتنة.

درية السيد حافظ، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

عبد اللاوي ناصر(2012)، الهوية التواصلية في تفكير هابرماس، دار الفرابي، بيروت.

مالك بن نبي(1988)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، احمد شعبو، دار الفكر المعاصر، دمشق.

محمد عابد الجابري(1998)، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، بيروت، عدد رقم 228، فيفري.

محمد فريد عزي(2008)، الأجيال والقيم، مقاربة للتغير الاجتماعي والسياسي في الجزائر، أطروحة دكتوراه دولة في علم الاجتماع، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع.

محمد عابد الجابري(1991)، تكوين العقل البشري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 5.

يورغن هابرماس(2001)، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، ط1، مصر.

Armand et Michèle Mattelart(2004), Histoire des théories de la communication, Collection REPERE, La Découverte, Ed 03, Paris.

Benchehida Ahmed(1995), Les paradoxes de la fonction scopique dans la personnalisation, Ed CRASC.

Chadly Fitoury(1969), L'acculturation premier facteur du sous-développement, Revue international des sciences sociales, Vol /N°3.

Carmel Camilleri- Geneviève Vinsonneau(2002), Psychologie et culture, Concepts et méthodes, Armand Colin.

Denys Cuche(1998), La notion de culture dans les sciences sociales, Approches, Casbah édition, Alger.

Geneviève Vinsonneau(2003), Culture et comportement, 2° Edition, CURSUS, Armand Colin, Paris.

Jean Caune(1995), Culture et communication, Convergences théoriques et lieux de médiation, Ed PUG.

Jean Lihisse(2007), La communication, De la transmission à la relation, Edition revue et augmentée par : Annabelle Klein, Troisième édition, Paris.

Jean Lohisse(1998), Les systèmes de communication, Approche Socio-Anthropologique, CURSUS, Armand Colin, Masson, Paris.

Jean-Pierre Warnier(1989), La mondialisation de la culture, Repère, La Découverte, paris.

Mondher Kilani(1989), Introduction à l'anthropologie, Edition PAYOT, Lausanne.

Mustapha Cherif, Jean Sur, Jacques Berque(2004), Orient- Occident, Edition ANEP, Alger.

Mustapha Madi(1997), Elites et question identitaire, Réflexion Casbah, Alger, N°1.